فهم الخطاب القرآني بين عتبة البحث الإعجازي وأفق الدرس البلاغي
من خلال كتاب معاني القرآن للفراء

Understanding the Qur'anic Discourse between the Threshold of the Research in the I'jaz in the Qur'an and the Horizon of Rhetorical Study through The Book of Qur'an Meanings by Imam al- Fur'a

محمد مقدم [1]

[1]**المركز الجامعي أحمد زبانة – غليزان– (الجزائر)البريد الإلكتروني: mokeddem.med1976@gmail.com**

تاريخ الاستلام: 2020/10/25 **تاريخ القبول:** 2020/12/02 **تاريخ النشر:** 2020/12/10

ملخص:

إن التأسيس للدراسات البلاغية مر عبر العديد من المراحل، وإن جل الدارسين يتفقون على أن التعاطي مع قضايا الإعجاز القرآن والبحث في مسائله كان منذ بدابات التفكير في الدرس الإعجازي وصولا إلى استقلالية العديد من الدراسات اللغوية والبلاغية ، مما يدل دلالة قاطعة أن البحث في مسائل ومباحث الإعجاز القرآني فتق قرائح الباحثين والدارسين، وكان ذلك سببا مباشرا في ظهور العديد من المؤلفات والمصنفات التي مهدت لتأسيس الدرس البلاغي واستقرار مباحثه، ومن ثم كان التنقيب في حفريات وبطون التصانيف العتيقة مؤشرا على هذا المعطى وسندا قويا في تقرير ما ذكرناه سلفا، إن العديد من المؤلفات في حقل الدراسات القرآنية كان له الأثر الطيب في نضج مباحث علوم البلاغة في مراحلها اللاحقة والمتعاقبة، وسأضع بين يدي القارئ أنموذجا عن تلكم الدراسات وذلك من خلال كتاب معاني القرآن للإمام الفراء.

كلمات مفتاحية: الإعجاز – البلاغة – الاطناب – الالتفات– الايجاز– الاستفهام– التقديم والتأخير

[1] **المؤلف المرسل:** محمد مقدم

Abstract

The founding for rhetorical studies has gone through many stages. Most of the scholars agree that dealing with the issues of the concept of inimitability in the Qur'an and researching its issues started from the beginning of thinking about the inimitability lesson until the independence of many linguistic and rhetorical studies, which clearly indicates that the research in the concept of inimitability in the Qur'an has incited the researchers and scholars to questions and investigate more the matter. This was a direct motive for the emergence of many books and compilations that paved the way for the institution of the rhetorical research and the stability of its investigations. The profound query in the depth of antique classifications was an indication of this fact and a strong support of what have been mentioned earlier, Many of the books in the field of Qur'anic studies had a constructive effect on the maturity of the subjects of rhetoric sciences both in their subsequent and successive stages. The present study will put in the hands of the reader an example of these research works, through the book of Qur'an Meanings of Imam al- Fur'a.

Key Words: I'jaz , Rhetoric , Exaggeration , Attention , Brevity , Inquiry , Presentation and Delay

1. مقدمة:

لقد سحر القرآن الكريم العرب منذ نزوله، وتسلّل إلى شغاف قلوبهم فاعترفوا بمزيته وإعجازه وآمنوا به، بل كانوا بعد ذلك من أشد المنافحين عنه، فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر– رضي الله عنه– حديثا طويلا عن إسلامه، وفيه : أن أنيسا أخا أبي ذر ذهب إلى مكة ثم عاد فقال لأبي ذر: لقيت رجلا بمكة على دينك(1)، يزعم أن الله أرسله قلت: فما يقول الناس ؟.قال: يقولون شاعر، كاهن، ساحر. وكان أنيس أحد الشعراء، قال أنيس: لقد سعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعت قوله على أَقْرَاءِ الشعر(2) فما يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون"(3).

وروى البخاري في صحيحه عن محمد بن جبير عن أبيه قال: "سمعت النبي –ص– يقرأ في المغرب بالطور، وذلك أول ما وقر الإيمان في قلبي "(4) .

وكذلك ما نقله أصحاب السنن من قصة إسلام سيدنا عمر –رضي الله عنه– وأنه رقّ قلبه وأسلم حينما سمع القرآن الكريم، فقد خرج عمر متوحشا بسيفه يريد رسول الله –ص– ورهطا من أصحابه قد اجتمعوا في بيت عند الصفا، وهم قريب من أربعين بين رجال ونساء، وفي الطريق لقيه نعيم بن عبد الله وكان يكتم إيمانه فسأله عن وجهته فأخبره بغرضه، فحذّره بني عبد مناف، ودعاه أن يرجع إلى بعض أهله: ختنه سعيد بن زيد بن عمر وأخته فاطمة بنت الخطاب زوج سعيد فقد صبآ عن دينهما .

فذهب إليهما عمر –رض– وهناك سمع خبّاب بن الأرت يتلوا عليهما القرآن الكريم، فاقتحم الباب، وبطش بختنه سعيد وشجّ أخته فاطمة...وقال لها: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤون آنفا، أنظر ما هذا الذي جاء به محمد، فاستحلفته أن يردّها سالمة وطلبت إليه أن يغتسل ففعل، فلما أخذ الصحيفة قرأ فيها صدر السورة:﴿طه مَآ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ لِتَشْقَى إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى تَنْزِيلاً مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾(5) .

ثم قال –أي سيدنا عمر–:" ما أحسن هذا الكلام وأكرمه، فلما سمع ذلك خبّاب خرج إليه فقال له: يا عمر "والله إنّي لأرجوا أن يكون الله خصّك بدعوة نبيه ،فإنّي سمعته أمس وهو يقول : "اللهم أيّد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب" فالله الله يا عمر فقال له عمر: فدلَّني يا خبّاب على محمد حتى آتيه فأسلم، فدلَّه فذهب إليه فأعلن إسلامه"(6) .

وكان لأبي بكر –رض– مسجد عند باب داره في بني جمح، فكان يصلي فيه، وكان رجلا أسيفا إذا قرأ بكى شوقا وخوفا"(7). وكان عبد الله بن عمرو يكثر البكاء، ويغلق عليه بابه حتى رمضت عيناه"(8).

إلى غير ذلك من الآثار الواردة في هذا الباب ممّا قد يطول الحديث في عرضها ، كما يخبرنا القرآن الكريم أن أهل الكتاب حينما سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع يقول الحق سبحانه :﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرِفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾(9) ويقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾(10) .

لقد حكى لنا القرآن موقف الجن حين سمعوه وعادوا إلى قومهم مؤمنين، ويصفونه بالعجب والهداية إلى الرشد قال تعالى: ﴿وَإِذَ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُواْ أَنْصِتُواْ فَلَمَّا

قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَى قَوْمِهِم مُّنْذِرِينَ قَالُواْ يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ)(11) .

إن هذا الأثر العميق الذي تركه القرآن الكريم في نفوس هؤلاء دليل على أنهم كانوا يتذوقون القرآن الكريم، وأنهم كانوا يدركون تمام الإدراك أن وجه الإعجاز فيه هو طريقته في تخير الألفاظ وانتقائها، ووضعها في مكانها اللائق بها، وفق ما يتطلبه المعنى حتى تحدث الجملة صورة فنية رائعة، هذه الصورة هي التي يتشكل بها البيان ويسموا بها أسلوب على أسلوب، ويتفاضل من أجلها أديب على أديب، وهذه الطريقة أو هذا التخير هو الذي سماه الجرجاني "بالنظم" .

"إذن فخصيصة الإعجاز القرآني تكمن في بنائه الكلامي، باعتباره الوجه الذي ينفرد به دون بقية الكتب السماوية، يشهد بذلك القرآن الكريم نفسه بإحكام بنائه وبتنزيله المتين، ويشهد بذلك تحديه للعالمين أن يأتوا بمثله في موضوعات مفتريات، إضافة إلى الدال التاريخي والاجتماعي للعرب الذين تنزل فيهم، وبروز مؤثر الفصاحة في كيانهم النفسي الثقافي عامة ومن سنن الإعجاز في الرسالات السماوية دحض ما يعتبره المخاطبون خارقا عندهم بحجة من معدن حجتهم تفوق طاقتهم وتقعد بهم دون مرقى الإعجاز"(12)

لقد أدرك المسلمون بفطرهم السليمة أن إعجاز القرآن إنما يكمن في نظمه الذي وصل إلى حد الإعجاز وخرج عن طوق البشر، ولم يكونوا بحاجة إلى وسائل تعينهم على إدراك هذه الحقيقة فظل الأمر على ما هو عليه، وانتهى عصر صدر الإسلام ولم تلق قضية الإعجاز معارضة تُذْكَرْ، لأن القوم عربٌ معتزون بعروبتهم ومسلمون معتزون بإسلامهم لأنهم خرجوا به منتصرين ضد أعداء كثيرين

وكانت دلائل الإعجاز البياني تدرك بالذوق الأصيل، والطبع العربي السليم أما بعد هذا العصر فتغيرت الحال وفسدت الملكات، ودخل في دين الله من يضمر الكفر ويظهر الإسلام، واحتاج المسلمون إلى تدوين المقاييس التي يتفاضل بها الكلام في سعي منهم للرد على شكوك المشككين وطعون الطاعنين "فانتقل الإعجاز من مرحلة التذوق الفطري إلى مرحلة التذوق العلمي، الذي يجب أن تسبقه دراسة واسعة لأساليب اللغة العربية تؤهل صاحبها لإدراك ناحية الإعجاز في القرآن العظيم، وهذا يعني أن الإعجاز الذي كانت تدركه أكثرية العرب من الذين عاصروا نزول القرآن الكريم أصبح من اختصاص طائفة قليلة من المسلمين، هي التي بيدها وسائل التذوق الفني، وبهذا كثرت التساؤلات والاستفهامات حول إعجاز

القرآن الكريم، فيم وقع الإعجاز؟. وفي أي من القرآن؟. وما هي وجوه هذا الإعجاز؟. ولماذا صار القرآن معجزا؟. وهل هو معجز بلفظه أو بمعناه، أو بما يشتمل عليه من المغيبات أو التشريعات؟"(13) .

إلا أن هذه التساؤلات لم تلق في بداية الأمر أجوبة كافية شافية بل كان جل اهتمام تلك الدراسات منصبا إذّاك "حول الجانب اللغوي في القرآن واعتمدت على تفسير الغريب منه، مستعينة في ذلك بالشعر العربي، وكان أبرز الذين اهتموا بذلك ابن عباس في تفسيره، وأبو عبيدة في كتابه "مجاز القرآن" والفراء في كتابه "معاني القرآن".

سأحاول من خلال هذا البحث أن أبرز إسهامات الفراء في التأسيس للدرس البلاغي وذلك انطلاقا من البحث في القضايا الإعجازية ، فما هي أبرز المرتكزات التي اتكأ عليها الفراء في بيانه لمكامن الإعجاز في النص القرآني؟ ما هي أبرز المباحث التي تطرق لها؟ كيف استطاع الفراء أن يجلي مواطن الإعجاز وتطبيقاته في القرآن الكريم؟ ما علاقة تلك المباحث بالدرس البلاغي؟ وللإجابة عن تلكم الإشكالات ارتأت أن أركز على جانبين أساسين أما الأول يتعلق بشخص المؤلف ونبذة وجيزة عن حياته وسبب تأليفه لكتابه، أما الثاني فيتعلق بأبرز المباحث والقضايا التي عرض لها الفراء في كتابه المعاني.

ترجمته

هو أبو زكريا يحي بن زياد بن عبد الله بن منظور الأسلمي المعروف بالفرّاء كان أبرع الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب(14)، قيل له الفراء لأنه كان يفري الكلام، وقيل إنما سمي الفراء فراء لأنه كان يحسن نظم المسائل، أو لقطعه الخصوم بالمسائل التي يعنت لها (15). ولد بالكوفة سنة 144هـ في عهد أبي جعفر المنصور ونشأ ودرس بها ثم قصد البصرة كما فعل الكسائي ولقي فيها يونس بن حبيب وأخذ عنه شيئا ثم توجه إلى بغداد ولقي الكسائي فصاحبه وأخذ عنه، ويشهد له بفضله ومكانته، وثقافته وسعة اطلاعه، خاصة في علوم اللغة بشهادة معاصريه حيث قال فيه أبو العباس أحمد بن يحي ثعلب: "لولا الفراء ما كانت عربية لأنه حصنها وضبطها، ولولا الفراء لسقطت العربية لأنها كانت تتنازع ويدعيها كل من أراد"(16).

وقد كان للفراء مؤلفات عدة من أشهرها كتابه "معاني القرآن" الذي سأتناوله بالدراسة. توفي – رحمه الله – في طريق عودته من مكة . 207 هـ وقيل 209هـ "(17).

دواعي تأليف كتاب معاني القرآن.

ورد في سبب تأليف الفراء كتابه "معاني القرآن" أن أحد أصحابه وهو عمرو بن بكير كان يصحب الحسن بن سهل فكتب إلى الفراء أن الأمير الحسن لا يزال يسألني عن أشياء من القرآن لا يحضرني عنها جواب، فإن رأيت أن تجمع لي أصولا وتجعل ذلك كتابا يرجع إليه فعلت، فلما قرأ الكتاب قال لأصحابه: اجتمعوا حتى أملي عليكم كتابا في القرآن وجعل لهم يوما فلما حضروا خرج إليهم وكان في المسجد رجل يؤذن فيه وكان من القراء فقال له: إقرأ فقرأ فاتحة الكتاب ففسرها حتى مرّ في القرآن كله على ذلك يقرأ الرجل والفراء يفسره"(18).

منهجه في كتابه.

لم يخرج الفراء في كتابه عن الطريقة التي كان قد انتهجها سلفه في هذا المجال أبو عبيدة في كتابه "المجاز" فنجده يسير على منهج أبي عبيدة فيشرح بعض الألفاظ والآيات القرآنية وبعض الأساليب البيانية والتراكيب الإعرابية.

فإذا كان كتاب "مجاز القرآن" لأبي عبيدة يبحث في الغريب والمجاز، فإن كتاب الفراء يبحث في التراكيب والإعراب. " فالذي يمعن النظر في كتاب "معاني القرآن" يجده يعالج المشاكل التي عالجها أبو عبيدة تقريبا غير أن ثقافة الفراء النحوية قد ظهرت في كتابه بشكل واضح"(19).كما أننا نجد الفراء يبدأ فيه بسورة الفاتحة ثم البقرة وهكذا تنازليا ويتعرض لآيات كل سورة آية آية بالترتيب –فلم يقتصر على الغريب كما فعل أبو عبيدة– شارحا ومفسرا لغريب الألفاظ ويقف كلما استدعاه الأمر للوقوف لقراءة في آية يصحّحها أو ينفيها أو يضعّفها ثم يفسرها تفسيرا نحويا ويوجه ما يحتاج منها إلى التوجيه النحوي أو اللغوي، ويأتي بالأمثلة والشواهد ثم يدرج المسألة جميعا تحت قاعدة عامة"(20).

كما أننا نجده ينتخب آيات من تلك السور التي يذكر أسماءها عند حديثه عن أول آية فيها فيقول ومن سورة كذا ثم يذكر اسم السورة ثم يقول: بسم الله الرحمن الرحيم وبعدها يبدأ حديثه عن مسألة لغوية في الآية التي اختارها وهو أحيانا يذكر السورة باسم أول آية منها أو جزء من هذه الآية فسورة الشورى: عسق وسورة النبأ: عم يتساءلون وهكذا...

والقاعدة المتبعة في دراسة المعاني عند الفراء تشتبه إلى حد بعيد مع ما سار عليه أبو عبيدة في كتابه المجاز حيث يشرح الآية بآية أخرى، ثم بحديث نبوي شريف إذا كان لها ارتباط بحديث رسول الله –ص–، ثم يعمد إلى التدليل عليها بالشواهد الشعرية أو الأمثال العربية السائرة أو كلام العرب الفصيح. كما

أنه يتعرض أحيانا لأسباب نزول الآية وذلك استنادا إلى أقوال المشهورين من أئمة التفسير من الصحابة والتابعين.

من المباحث البلاغية عند الفراء.

إن الناظر في كتاب الفراء يتلمس النزعة النحوية من حيث التراكيب والإعراب ويجدها جلية في كتابه، وهذا طبيعي من إمام النحويين الكوفيين في عصره. وكثيرا ما نراه يقف ليوضح الجانب النحوي والإعراب في الآية إلا أن البحوث النحوية عند الفراء لا تخلو من التنبيه إلى تلك الأساليب البيانية و التراكيب الإعرابية التي تستوقفه عند شرحه للآيات القرآنية ويرد كل هذا إلى مذاهب العرب في كلامها. ومن أمثلة ذلك:

الإيجاز.

يرى الفراء أن من شأن العرب الإيجاز وتقليل الكلام فيحذفون من الكلام بقصد التخفيف لكن مع شريطة علم السامع به، حتى لا يلتبس عليه الأمر فيقول في قوله تعالى: ﴿فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ﴾(21) فافعل مضمرة، بذلك جاء التفسير وذلك معناه، وإنما تفعله العرب في كل موضع يعرف فيه معنى الجواب، ألا ترى أنك تقول للرجل: إن استطعت أن تتصدق، إن رأيت أن تقوم معنا، بترك الجواب لمعرفتك بمعرفته به، فإذا جاء ما لا يعرف جوابه إلا بظهوره أظهرته كقولك للرجل: إن تقم تصب خيرا. لا بد في هذا من جواب لأن معناه لا يعرف إذا طرح"(22).

ثم تحدث عن بعض المواطن التي يحسن فيها الإضمار في الكلام ويدل أوله على آخره ومثله في قوله تعالى: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِن مَّعِينٍ﴾(23) ثم قال: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ وَحُورٌ عِينٌ﴾(24) فخفض بعض القراء ورفع بعضهم (الحور العين) قال الذين رفعوا: الحور العين لا يطاف بهن فرفعوا على معنى قولهم: وعندهم حور عين أو مع ذلك حور عين. فقيل الفاكهة واللحم لا يطاف بهما إنّما يطاف بالخمر وحدها والله أعلم، ثم أتبع آخر الكلام أوله وهو كثير في كلام العرب وأشعارهم. وأنشدني بعض بني أسد يصف فرسه:

علفتها تبنا وماء باردا حتى شتت همَّالة عيناها

ويقول: والكتاب أعرب وأقوى في الحجة من الشعر"(25) وكأنه يتحاشى بذلك جعل الشعر أصلا للقرآن كما ذكر ذلك صاحب البرهان الإمام الزركشي من أن بعض النحاة جعلوا الشعر أصلا للقرآن والأصل أن الشعر إنما يرجع إليه فيما أشكل فهمه في بعض حروف القرآن وكما قال ابن عباس:

الشعر ديوان العرب فإذا خفي عليهم الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغتهم رجعوا إلى ديوانهم والتمسوا معرفة ذلك"(26) وفي هذا إلحاح إلى دراسة اللغة العربية بإتقان آدابها ليتمكن الذوق العربي من فهم القرآن الكريم ومتابعة قضية الإعجاز القرآني والتعرف على مواطن ذلك في القرآن.

الإطناب.

وقد عرض له في قوله تعالى: (وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ)(27) فإن الطائر لا يطير إلا بجناحين وهو في الكلام بمنزلة قوله تعالى:(لَهُ تِسْعٌ وَ تِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِي نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ)(28) وكذلك للرجل: (كلمته بفي ومشيت إليه على رجلي) إبلاغا في الكلام"(29).

التقديم والتأخير.

وقد عرض له في قوله تعالى: (حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ)(30) يقال: إنه مقدم ومؤخر معناه (حتى إذا تنازعتم في الأمر فشلتم) فهذه الواو معناها السقوط كما يقال:.(فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ)(31) معناه ناديناه"(32)، أي وتله للجبين ناديناه.

الاستفهام.

وقف الفرّاء عنده كثيرا ولاحظ خروجه عن معناه الحقيقي إلى المجازي فيراد به أحيانا التوبيخ أو التعجب يقول في قوله تعالى: (كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا)(33) على وجه التعجب و التوبيخ لا الاستفهام. المعنى أي ويحكم كيف تكفرون"(34)، وهو كقوله: (فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ)(35).

وأحيانا يخرج إلى الأمر مثل قوله تعالى: (وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ)(36) ومعناه أمر وفي قوله تعالى: (فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ)(37) استفهاما وتأويله (انتهوا) وكذلك قوله: (هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ)(38) إنما هو مسألة. أولا ترى أنك تقول للرجل: هل أنت كاف عنَّا ؟.معناه: اكفف، تقول للرجل: أين أين ؟. أقم ولا تبرح فلذلك جوزي في الاستفهام كما جوزي في الأمر(39).

الالتفات.

عرفه الفرّاء ولم يسمّه يقول في قوله تعالى: (حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ)(40) يعني الفلك فقال: جاءتها وقد قال في أول الكلام: (وجرين بهم) ولم يقل وجرت وكل صواب، تقول النساء: قد ذهبت وذهبن"(41).

المجاز العقلي.

تعرض له الفراء وبينه ومثل له من القرآن الكريم والكلام العربي دون تسميته يقول في قوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ﴾(42) ربما قال قائل: وكيف تربح التجارةُ وإنما يربح الرجلُ التاجر؟ وذلك من كلام العرب ربح بيعك، وخسر بيعك فحسن القول بذلك، لأن الربح والخسران إنما يكونان في التجارة فعلم معناه، ومثله من كلام العرب هذا ليل نائم، ومثله من كتاب الله: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ﴾(43) وإنما العزيمة للرجال .

فهو يشترط في حذف الفاعل الحقيقي وإسناد الفعل إلى غير مَنْ هوَ لَهُ أن يكون ذلك معلوما لدى السامع، ولذلك لا يجوز حذف الفاعل الحقيقي وإقامة غيره في مكانه في مثل (قد خسر عبدك) إذا كنت تريد أن تجعل للعبد تجارة يقع فيها الربح والخسارة، لأنه قد يكون العبد تاجرا فيربح أو يخسر فلا يعلم معناه إذا كان متجوزا فيه، أما لو قال القائل: قد ربحت بدراهمك ودنانيرك، وخسرت بيتك ورفيقك، كان جائزا لدلالة بعضه على بعض"(44).

استعمال المضارع مكان الماضي.

تعرّض له الفرّاء وذكر أن العرب كانت تستخدم هذا الأسلوب فقال في قوله تعالى: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللهِ مِن قَبْلُ﴾(45). يقول القائل: إنما (تقتلون) للمستقبل فكيف قال: (من قبل)؟. ونحن لا نجيز في الكلام أنا أضربك أمس، وذلك جائز إذا أردت بتفعلون الماضي. ألا ترى أنك تُعَنِّفُ الرجل بما سلف فعله فتقول: ويحك لم تكذب!، لم تبغض نفسك إلى الناس! ومثله قول الله Y : ﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ﴾(46) ولم يقل ما تلت الشياطين وذلك كثير في الكلام العربي. أنشدني بعض العرب:

إذا انتسبنا لم تلدني لئيمة ولم تجدي من أن تقرّي بها أبدا

فالجزاء للمستقبل، الولادة كلها قد مضت، وذلك أن المعنى معروف.

ومثله في الكلام إذا نظرت في سيرة عمر بن الخطاب لم يسئ (أي لم تجده أساء). فلما كان أمر عمر لا يشك في مضيه لم يقع في الوهم أنه مستقبل فلذلك صلحت (من قبل) مع قوله تعالى: ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللهِ مِن قَبْلُ﴾ وليس الذين خوطبوا بالقتل هم القتلة، إنما قتلَ الأنبياءَ أسلافُهم الذين مضوا فتولّوْهم على ذلك ورضوا به فنسب القتل إليهم"(47).

فأنت تراه كيف يجهد نفسه لكي يرد التعبير القرآني إلى التعبير العربي المألوف فحسب، ولا يكلف نفسه بيان السر البلاغي في هذا الاستعمال، وهو أن المراد استحضار الصورة وتمثلها حتى نراها رأي العين فيكون ذلك أقوى أثرا لشدة التصاق الصورة وتعلقها بالنفس كما يقول البلاغيون"(48).

الكناية.

وقد ورد هذا التعبير في مواضع عديدة من الكتاب وهو يدل عنده بصفة عامة على المعنى المعروف في البلاغة.فالكناية ضرورة تعبيريّة للتعبير عما لا يراد إظهاره للناس كرها لنبوه عن الذوق أو لما فيه من كشف عن غير مستحب كشفُه أو محاولة للتأنق والإغراب في التعبير"(49). وقد ذهب إلى هذا الفراء وأطلقها على الأسلوب المعروف بالكناية اللغوية يقول في قوله تعالى: (أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنُكُم مِّنَ الْغَائِطِ)(50) كناية عن خلوة الرجل إذا أراد قضاء الحاجة"(51).

والكناية عنده أيضا بمعنى الستر أو الإخفاء عامة فهي إخفاء معنىً كما في المثال السابق أو إخفاء لفظ أو استبدال غيره به كما أخفي القول وجيء مكانه بالكتاب في قوله تعالى: (كَتَبَ اللهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي)(52) فالكتاب يجري مجرى القول وقد يختفي اللفظ ويبدل به ضمير مثلما في قوله: (وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا)(53) جلا الظلمة فجاز الكناية عن الظلمة ولم تذكر لأن معناها معروف، ألا ترى أنك تقول: أصبحت باردة وأمست باردة وهبّت شمالا، فكنى عن مؤنثات لم يجر لهن ذكر لأن معناهن معروف"(54).

أما قيمة التركيب الفنية وإسناد الفعل (كتب) إلى لفظ الجلالة وتأكيد الفعل المضارع باللام والنون المشددة وإبراز الضمير (أنا) وعطف (رسلي) مضافة إلى الياء، وما وراء ذلك كله من دلالات خفية تؤكد المعنى وتبرزه في مجال الثقة الواقعة نشأ وراء غاية هذا الكتاب"(55).

ففي قوله تعالى: (فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ)(56)، يقول: ولم يقل: في حيث وهو الفرج، وإنما قال: من حيث كما تقول للرجل: إيت زيداً من مأتاه أي من الوجه الذي يؤتى منه، فلو ظهر الفرج ولم يكنَّ عنه قلت في الكلام: إيت المرأة في فرجها (فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ) يقال: إيت الفرج من حيث شئت.

التشبيه.

وهو من أول الاصطلاحات التي بدأت تظهر في الدراسات القرآنية دالة على صور بيانية تطلق في حدود المعنى اللغوي وإن كانت تشير إلى المعنى البلاغي، والتشبيه عند الفراء مصطلح مرادف للمثل والمثيل.

وفي كتاب الفراء العديد من الإشارات التي تتصل بالتشبيه والمثل من مثل قوله في إبراز هذه الصورة البيانية (وَمَثَلُ الّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الّذِي يَنْعِقُ)(57) أضاف المثل إلى الذين كفروا ثم شبههم بالراعي ولم يقل كالغنم –والمعنى والله أعلم– مثل الذين كفروا كمثل البهائم التي لا تفقه ما يقول الراعي أكثر من الصوت، فلو قال لها: ارعي أو اشربي لم تدر ما يقول لها. فكذلك مثل الذين كفروا فيما يأتيهم من القرآن وإنذار الرسول. فأضيف التشبيه إلى الراعي –والمعنى والله أعلم– في المرعى، وهو ظاهر في كلام العرب أن يقولوا: فلان يخافك كخوف الأسد، والمعنى: كخوفه الأسد، لأن الأسد هو المعروف بأنه الخوف"(58) فهاهنا نجد أن الفراء قد تعرض لذكر أركان التشبيه، والعلاقة بين المشبه والمشبه به، ووجه الشبه، وتعتبر هذه المحاولة في فهم التشبيه جديدة وخطوة متقدمة عن فهم أبي عبيدة له، وهو الذي لم يشر إلى التشبيه غير إشارات عابرة لاعتباره مجازا ولم يفصّل فيه تفصيل الفراء في فهم ودراية"(59).

ويتضح هذا أكثر في حديثه عن قوله تعالى: (فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ)(60) أراد بالوردة الغرس والوردة تكون في الربيع إلى الصفرة أميل فإذا اشتد البرد كانت وردية حمراء، فإذا كان بعد ذلك كانت وردة إلى الغبرة أميل، فشبه تلون السماء بتلون الوردة، وشبهت الوردة في اختلاف ألوانها بالدهن واختلاف ألوانه، ويقال: إن الدهان الأديم الأحمر. فنجده في هذا المثال قد "أجاد إدراك التشبيه بأقسامه وعرف أنه مركب هنا من قسمين أو صورتين متعاقبتين: صورة السماء منشقة، وصورة الوردة ثم صورة الدهان، والصورتان الأخيرتان مركبتان لتوضيح وجه الشبه، والفراء يوضح معنى المشبه به في هاتين الصورتين فيوضح معنى الوردة وينبه إلى وجه الشبه، وهو أحوال تلونها فهي في الربيع صفراء وفي الشتاء حمراء ثم غبراء داكنة عند الذبول وهذا التلون التدريجي من اللون الناصع إلى الداكن يشبه أيضا لون الدهن. وقد عملت فيه النار فاشتعل بلون أصفر ثم بدأت ألسنته محمرة إذ آذن بالانطفاء ثم يتحول إلى رماد داكن"(61).

وقد ذهب الدكتور فتحي أحمد عامر إلى أن هذه المحاولة في فهم التشبيه من صاحب معاني القرآن يعوزها الدقة لأنها محاولة مادية أغفلت الجانب النفسي، وهو المدار الذي يدور حوله التشبيه في الآيات...فصورة التشبيه الثانية ترسم لوحة لمنظر من مناظر يوم القيامة يثير الذعر والهلع، فهناك سماء

تنشق وتتصدع، وهناك لون أحمر مزعج وهناك دهن يجري، وتلك عناصر من عناصر الصورة التي توحي بالخوف والقلق ومعاودة النفس من الكفار في شأن الإيمان بالله والتصديق بنوة النبي —ص-.

يقول سعيد بن جبير وقتادة : المعنى فكانت حمراء وقيل المعنى تصير في حمرة الورد وجريان الدهن أي تذوب مع الانشقاق حتى تصير حمراء من حرارة جهنم وتصير مثل الدهن لرقتها وذوبانه"(62).

الاستعارة

لم يذكرها الفراء ولم ينص عليها ولم يبيّن معناها البلاغي المفهوم عند العلماء ولكنه حاول بيان حقيقتها عند تعرضه لها في بعض النصوص القرآنية، يقول في قوله تعالى: (أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ)(63) أي كان ضالا فهديناه"(64) وفي قوله تعالى: (فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ)(65) يقول: الإثابة هاهنا في معنى عقاب ولكنه كما قال الشاعر:

أخاف زيادا أن يكون عطاؤه أذاهم سودا أو محدرجه سمرا

وقد يقول الرجل الذي قد اجترم إليك : لئن أتيتني لأثيبنك ثوابك ، معناه لأعاقبنك وربما أنكره من لا يعرف مذاهب العربية، وقد قال تبارك وتعالى: (فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)(66) والبشارة إنما تكون في الخير فقد قيل ذلك في الشر(67).

وكان الفراء –في بعض الآيات التي تتعلق بالجانب العقدي— يحيل على تفسير الصحابة ولا يتفرد بتفسيره كي لا يقع في الحرج.

ففي قوله تعالى: (يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ)(68) يقول: إن القراء مجمعون على رفع الياء حدثنا محمد قال: حدثنا الفراء قال: وحدثني ... عن ابن عباس —رض- أنه قرأ(يَوْمَ نَكْشِفُ عَن سَاقٍ) يريد يوم القيامة والساعة لشدتها قال: وحدثني بعض العرب لجد طَرَفَةَ:

كشفت لهم عن ساقها وبدا من الشر البراح

فأنت ترى كيف نقل تفسيرها عن ابن عباس —رض- وكل هذا فرارا من التشبيه حتى لا يقع في حرج التشبيه"(69)

نظم القرآن ووزنه (الفواصل القرآنية)

إن القرآن الكريم يمتاز بأسلوب إيقاعي ينبعث منه نغمٌ جميلٌ ساحرٌ يبهر الألباب ويسترق الأسماع ويسل الدموع من العيون ويستولي على الأحاسيس والمشاعر، وقديما تنبّه العرب إلى وزن القرآن فقارنوه بوزن الشعر وإيقاع سجع الكهان، ولكنهم حين عرضوا الأمر على الوليد بن المغيرة رفضه وقال: لقد عرفنا

الشعر كله رجزه، وهجزه، وقريضه، ومقبوضه، ومبسوطه فما هو بالشعر. وقال فيه قولته المشهورة: "إن لقوله لحلاوة وإن أصله لغدق وإن فرعه لجناه "(70) ثم أصبحت هذه خاصية مشهورة للقرآن.

يقول سيد قطب رحمه الله: "إن النسق القرآني قد جمع بين مزايا الشعر والنثر جميعا، فقد أعفى التعبير من قيود القافية الموحدة والتفعيلات التامة فنال بذلك حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة وأخذ في الوقت ذاته من خصائص الشعر الموسيقى الداخلية والفواصل المتقاربة في الوزن التي تغني عن التفاعيل والتقفية التي تغني عن القوافي، وضم ذلك إلى الخصائص التي ذكرنا بشأن النثر والنظم جميعا"(71). ويبدوا أن أبا عبيدة لم ينتبه إلى هذا الإيقاع الموسيقي في نظم القرآن وهذا لا يعني بحال عدم إدراك الناس لهذه الميزة في القرآن الكريم، بل كان هذا الإحساس موجودا وهذا الأثر الموسيقي أكثر تأثيرا في النفوس وهذا ما لاحظه الفراء "فالجديد في كتاب الفراء والجدير بالاهتمام، أنه لاحظ هذا النسق الصوتي وحاول أن يتتبعه ونراه في ملاحظاته التي أوردها مدركا تماما لوزن القرآن، مدركا الغايةَ التي عمد إليها في التزام وزن بعينه، وهو الترابط بين الكلمات وانسجام النغم وتوافق الفواصل في آخر الآيات، وإذ تستدعي انتباهه هذه الظاهرة يحاول أن يضبطها ويقارنها بما عرف عند العرب من أوزان الشعر.

وهو إذ يحاول أن يقارن بين وزن الشعر ووزن القرآن لا يذهب بعيدا بل يريد أن يقول: إن للقرآن ما للشعر والكلام الموزون من صفات ومن هذه الاعتبارات المتصلة بالنظم تجاوبُ الكلمات مع وزن الآية ومراعاة رؤوس الآيات للنسق(72).

ويظهر أن الفراء قد طبق منهجه هذا (مقارنة التعبير القرآني بما عرف من كلام العرب) فجوز في القرآن كل ما يجوز في الشعر العربي على الإطلاق يقول في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾(73) أراد جنة كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾(74) فثنى لأجل الفاصلة ثم يقول: "والقوافي تحتمل من الزيادة والنقصان ما لا يحتمله سائر الكلام.

فالفراء لا يوافق على التفسير اللغوي الحرفي للجنتين بمعنى بستانين، بل يرى هذه التثنية بمعنى الإفراد وهو مما عدل إليه القرآن مراعاة للنظم كما يُرَاعى ذلك في الشعر لإقامة القافية"(75).

والظاهر أن رأي الفراء أثار ثائرة الأقدمين وعلى رأسهم ابن قتيبة الذي أنكر ذلك وأغلظ منه وقال: إنما يجوز في رؤوس الآي زيادة هاء السكت، أو الألف، أو حذف همزة أو حرف، فأما أن يكون الله وعد بجنتين فيجعلهما جنة واحدة لأجل رؤوس الآي فمعاذ الله وكيف هذا وهو يصفهما بصفات الاثنين قال: ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾(76) ثم قال: فيهما(77). والحقيقة أن الحقَّ كل الحقِّ مع ابن قتيبة فالقرآن

يمتاز بأن الفواصل فيه أو رؤوس الآي أو السجع على خلاف في ذلك لا تكون على حساب المعنى أبدا"(78).

لقد استطاع الفراء إذن أن يتفطن للموسيقى الظاهرة الناتجة عن التوافق الصوتي في القرآن الذي اقتدر معه على إدراك ما في نظم القرآن من حسن الإيقاع بين الفواصل في رؤوس الآي، وهي لمحة في موسيقى القرآن عجز عنها سابقه في التأليف ومعاصره أبو عبيدة.

كما استطاع الفراء أن يضع أمامنا قواعد عامة للتغيرات التي يمكن أن تطرأ على الكلمات والتي قد يعمد إليها القرآن أحيانا للتوافق الموسيقي في نظمه، وصلة تلك التغيرات بما يطرأ على القافية في الشعر لإقامة الوزن، ولا يفتأ الفراء يشير إلى أن القرآن في عدوله عن لفظٍ إلى آخر، أو تعديله للألفاظ لا يخرج عن أساليب العرب وفنون القول عندهم، وخاصة في الشعر وهو الكلام الموزون الذي يشابه ما نظمه من توافق وانسجام ما يراعيه أسلوب القرآن"(79).

خاتمة

لقد كان الغرض من كل هذه المباحث والقضايا المفصلية التي أثارها الفراء في كتابه تنمية ملكة فهم القرآن الكريم عن طريق تربية الذوق الأدبي، وقد استطاع أن يحيلنا على مباحث بلاغية أسست للدرس البلاغي فيما بعد، كما استطاع أن يوفق بين البحث في قضايا الإعجاز من زاويتها النظرية ويربطها بالبعد التطبيقي الإجرائي .

1- أي مثلك ، يعبد الله.

2- أقراء الشعر، طرقه وبحوره .

3- صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي ذر، ص 963/962، رقم :2473.

4- رواه البخاري في كتاب المغازي والسّير ص981 تحت رقم:4023. ورواه مسلم في كتاب الصلاة باب القراءة في الصبح، ص177 تحت رقم: 463..

5- سورة طه الآيات 1حتى 4.

6- الطبقات الكبرى، لابن سعد ج03،ص267،وانظر السيرة النبوية، لابن هشام ج01،ص369.وما بعدها. وانظر الإصابة في تمييز أسماء الصحابة، لابن حجر العسقلاني في ترجمة عمر بن الخطاب ج4 ص485. وفاطمة بنت الخطاب ج8 ص271.

7- التذكار في أفضل الأذكار، للإمام القرطبي، ص127، تحقيق ثروت محمد نافع، دار التوحيد.

8- المصدر السابق، ص127.

9- سورة المائدة، الآية 83.

10- سورة الإسراء، الآيات 107حتى109.

11- سورة الأحقاف، الآيتان30/29.

12- التحليل الأسلوبي ومقاييسه في "الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي"، د الأخضر الجمعي ، مجلة الموافقات .ع04، ص205،جوان 1995م.

13- الإعجاز في نظم القرآن، السيد شيخون، ص13.

14- وفيات الأعيان لابن خلكان،ج6 ص176، وانظر بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، ج2 ص333.

15- الأضداد لابن الأنباري، ص13.

16- طبقات النحويين واللغويين للزبيدي ص131.

17- المصدر نفسه، ص133/131.

18- وفيات الأعيان لابن خلكان، ج6 ص178.

19- قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة، عبد العزيز معطي عرفة، ص120.

20- أثر القرآن في تطور النقد العربي،ص51.

21- سورة الأنعام، الآية 35.

22- معاني القرآن للفراء، تحقيق أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار، ج1 ص332،ط1، دار الكتب المصرية،1374هـ/ 1955م .

23- سورة الواقعة، الآية17.

24- سورة الواقعة، الآيتان21/20.

25- معاني القرآن، ج1 ص14/13.

26- البرهان في علوم القرآن للزركشي، ج1 ص369.

27- سورة الأنعام، الآية 38.

28- سورة ص، الآية 23.
29- معاني القرآن للفراء، ج1 ص332.
30- سورة آل عمران، الآية 152.
31- سورة الصافات، الآيتان 103.
32- معاني القرآن للفراء، ج1 ص238.
33- سورة البقرة، الآية28.
34- معاني القرآن للفراء، ج1 ص23.
35- سورة التكوير، الآية26.
36- سورة آل عمران، الآية20.
37- سورة المائدة، الآية 91.
38- سورة المائدة، الآية112.
39-معاني القرآن للفراء، ج1، ص202.
40-سورة يونس، الآية 22.
41- معاني القرآن للفراء، ج1، ص460.
42- سورة البقرة، الآية16.
43- سورة محمد، الآية21.
44- معاني القرآن للفراء، ج1 ص15/14.
45- سورة البقرة، الآية91.
46- سورة البقرة، الآية.102.
47- معاني القرآن للفراء، ج1 ص61/60.
48- قضية الإعجاز القرآني وأثرها في تدوين البلاغة، عبد العزيز معطي عرفة، ص127.
49- أثر القرآن في تطور النقد العربي، ص55.
50- سورة النساء، الآية43.
51- معاني القرآن للفراء، ج1 ص303.
52- سورة المجادلة، الآية 21.
53- سورة الشمس، الآية 03.
54- أثر القرآن في تطور النقد العربي، ص55.

55- بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ، أحمد فتحي عامر، ص20.
56- سورة البقرة، الآية222.
57- سورة البقرة، الآية171.
58- معاني القرآن للفراء، ج1 ص 303.
59- أثر القرآن في تطور النقد، ص57.
60- سورة الرحمن، الآية 37.
61- أثر القرآن في تطور النقد العربي، ص57.
62- بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ فتحي أحمد عامر، ص 23/22.
63- سورة الأنعام، الآية122.
64- معاني القرآن للفراء، ج1 ص353.
65- سورة آل عمران، الآية153.
66- سورة آل عمران، الآية21.
67- معاني القرآن للفراء، ج1 ص240.
68- سورة القلم، الآية 42.
69- أنظر أثر القرآن في تطور النقد العربي، ص58.
70- سيرة ابن هشام، ج1 ص299.
71- التصوير الفني في القرآن الكريم لسيد قطب، ص.93
72- أثر القرآن في تطور النقد العربي، زغلول سلام، ص62.
73- سورة الرحمن، الآية46.
74- سورة النازعات، الآية41.
75- أنظر أثر القرآن في تطور النقد العربي، زغلول سلام، ص62.
76- سورة الرحمان، الآية 48.
77- المراد الآية 50 من سورة الرحمان أنظر معترك الأقران للسيوطي، ص37.
78- قضية الإعجاز القرآني وأثره في تدوين البلاغة العربية، عبد العزيز عبد المعطي عرفة، ص136.
79- أثر القرآن في تطور النقد، ص66.